

الآلة والأداة: بين الطبيعة والاستخدام!! (*)

لم أستطع أن أمنع نفسي من التأمل، وأنا أراجع النصوص العقابية، أو أعالج القضايا الجنائية، لماذا جرم المشرع حيازة أو إحراز السلاح الأبيض (بمواصفات خاصة)، مع أن هذا السلاح الذى يحمل خطر الجرح أو القتل هو ذاته الذى نقطع ونهئئ به طعامنا للطهى أو للتناول، وهو مبضع الجراح الذى يستأصل به الورم الخبيث أو يعالج به مااعتور البدن من آفات تستلزم الاستئصال أو الرتق الجراحى، وهو بلطة تقطيع الأشجار ومنجلة حصد الحشائش والمحصولات، وهو الذى تقوم عليه رياضة رمى "الرمح"، وهو الذى يتحول فى يد النحات إلى "أزميل"، وفى يد الإسكافى إلى شفرة للصناعة يقطع بها ويساوى ويرتق ويضبط ويجمل.. ثم ما بال المشرع يجرم إحراز أو حيازة السلاح النارى بغير ترخيص، مع أنه مع خطره على الأبدان والأرواح، هو هو أداة الصيد الحلال ورياضة الرماية المحببة ووسيلة الدفاع الشرعى عن الأنفس والأوطان؟ جرم المشرع هذه الحيازة أو الإحراز مثلما جرم إحراز أو حيازة غيرها أو الاتجار فيها بغير ترخيص كالمخدرات مع أنها لا تخلو من نفع أحيانا، فتدخل صناعة بعض الأدوية وهى مادة التخدير فى الجراحات بأنواعها، وكالسموم مع أنها فى بعض الأحوال ترياق!..الموت والضرر كامن فى هذه وتلك، ولكن هذه الطبيعة الكامنة فى السلاح الأبيض أو النارى، وفى المخدرات أو السموم، مرهونة بإرادة آدمية وفعل آدمى..لا توجد مادة شريرة، وأخرى خيرة.. وإنما يأتى الخير أو الشر تبعاً للآدمى الذى

يستعمل الآلة أو المادة أو الأداة.. شر هذه أو تلك مرهون بجنوح آدمى ينحرف بالطبيعة الكامنة فيما يستعمله، فيخرج بها عن وجوها النافعة السوية إلى استخدامات جانحة مؤذية، ضارة ومدمرة.. قد تحدث الجرح وقد تحدث القتل وقد تعصف بأرواح أو تؤذى أنفس أو تدمر حيوات، الإمكانيات والاستعمالات الطيبة لهذه الآلات والمواد لم تحل بين المشرع وبين اتخاذ التدابير لتلافي أخطار سوء استخدامها.. التأمل فى هذه الآلات والمواد يدلنا على أن الكوامن النافعة أو الضارة فيها لا تخرج إلا بتدخل وإرادة آدمية، هى التى تستعملها فى النفع والإفادة والخير، وهى هى التى تجنح فتستخدمها فى الإضرار والإيذاء والقتل والإهلاك.. فى حياتنا وفى الكون بعامه، كثير مما يفيد إن أردت به أن تفيد، وما يضر إن عمدت به إلى الإيذاء والإضرار!

فى القرآن المجيد، بمطلع سورة القلم: "ن والقلم وما يسطرون.. هذا القسم القرآنى بالقلم ليس بعبادة ولا تقديسا للقلم ذاته، فهو محض أداة جامدة صامتة، وإنما هو إيماء إلى استخدامه وما يدلى به من "كلمات".. هذه "الكلمات" مكتوبة بالقلم أو منطوقه باللسان هى مرجع ومرد وهدف وغاية الاهتمام القرآنى، فى سورة القلم، وفى غيرها من سور وآيات القرآن.. هذه "الكلمات" هى التى نزل بها وحى السماء، وهى التى صاغت التوراه والأنجيل والقرآن، وهى هى التى حملت أحاديث ومواعظ ونورانيات الرسل والأنبياء، وهى هى التى ترنم بها الشعراء وغنى المغنون، وأنشد المنشدون، وألقى الخطباء خطبهم والدعاة مواعظهم، وهى هى التى صاغت وحفظت أقيم الكتب والمصنفات فى الشعر والآداب والفنون والمسرح وائقصة الرواية والعلم والطبيعة، والفلك والكيمياء والرياضيات والزراعة والصناعة والمهن والحرف وكل ما أنتجته ولا تزال تنتجه قرائح ومواهب وملكات وعقول البشر.. هذه الكلمات هى قوام اللغة التى

تقييم أواخرنا وحاضرنا وتحفظ لنا ماضيها، وهى هى أداة التفكير وسبيل التواصل بين البشر..على قدر ما تحمله من قدرة على هذا العطاء الناصع المفيد الغامر، على قدر ما تحمل من قدرة على الإهلاك والتدمير.. هى هى لغة الشيطان وما يوسوس به، وهى هى أداة أبشع ما قاله الهجاءون، وسهام ما وجهه الذمامون والشتامون واللاعنون من قذائف وطعنات، وهى هى أداة شهود الزور وما قد تؤدى إليه من مساس بحريات أبرياء وربما عصف بحيواتهم.. هذه الكلمات قد تكون أشد تدميرا من نصال الحراب وحصاد المناجل وقذائف المدافع.. وما تحدثه قد يكون أمر وأمض من القتل!.. يفرق العارفون بين اغتيال الشخص وبين "اغتيال الشخصية" CHARACTER ASSASINATION.. قد يعيش المقتال شخصه بضربة خنجر أو رصاصة سلاح - يعيش عظيما مكرما فى التاريخ، ورمزا يحج إلى عظمته المعجزة بشخصيته التى لم يغتالها قتل شخصه.. انظر إلى الفاروق عمر بن الخطاب، هل اغتيلت شخصيته يوم اغتال القاتل شخصه!؟.. أليس هو الفاروق الذى يتغنى به الشعراء بعد مئات السنين، وفيه قال شاعر النيل حافظ إبراهيم فيما قال: "أمنت لما أقمت العدل بينهم: فنمت نوم قرير العين هانيها". ثم انظر إلى الإمام على بن أبى طالب، هل اغتال ابن ملجم شخصيته حين اغتال شخصه بخنجره المسموم!؟.. أليس قبر الإمام إلى اليوم مزارا يؤمه الملايين، وأليست حياته أسوة وقدوة، وأليست أرواح وأفئدة الملايين تهفو إليه عبر السنين وتترحم عليه وتتأسى به وتتشيع له!؟.. لم ينجح اغتيال الشخص فى اغتيال الشخصية!.. اغتيال الشخصية أوجع وأمر من اغتيال الشخص.. تؤثر الحرة أن تستقبل القتل على اغتيال شخصيتها بطعن عرضها وتدمير شرفها، ويؤثر الشريف أن يستقبل صدره طعنات الخناجر على التجنى الذى يعصف بشرفه الذى حرص عليه عمره!.. الكلمات الجانحة هى أداة اغتيال الشخصية، وهى

بهذا الجنوح والتجنى أكثر تدميرا وإهلاكا من القتل، وتحيل المصاب بظلمها ورذاذها إلى ميت برغم أن أنفاسه لا تزال تتردد.. فقد أعدمته الكلمات المتجنية فى نظر الناس، وربما مسته داخل أسرته وأهله، وربما حكمت عليه ظلما وافتئاتا بأن ينكفى ويعتزل دنيا الناس مخافة نظرات متشككة أو حتى مشفقة تحرق حناياه بأكثر مما تدميها الخناجر وطلقات الرصاص!!

الكلمة أيها السادة عظيمة عظيمة، ولكنها فى الوقت نفسه خطيرة خطيرة، وقد تكون أكثر تدميرا للناس وعراض الناس أكثر من طلقات الرصاص وشظايا القنابل.. الكلمة فيما يقول القرآن المجيد قد تكون طيبة كالشجرة الطيبة، وقد تكون خبيثة كالشجرة الخبيثة.. قد تكون صادقة يحق بها الحق، وقد تكون انحرافا بالكلم والحق عن مواضعه.. حين ندرك ذلك نفهم لماذا قال الحديث الشريف إن ما يكب الناس فى النار هو حصاد ألسنتهم، وإن أعظمهم خطايا هم أكثرهم خوضا فى الباطل!. ينطق الناطق بالكلمة وقد لا يبالي، فيكتب بها عند الله صدقا، وقد يفوه بأخرى فيبوء بها بسخط الله إلى يوم القيامة!!.. كارثة الكوارث أن الكلمة فى زماننا قد باتت مصابة بأسقام وجموح يدعو ولا يزال يدعو إلى إيجاد توازن منصف وعادل رعته الدساتير.. لا يميز ولا يجور ولا يخلط بين حق الكلمة وبين باطلها، بين حريتها وبين جريمتها، التوازن بين الحق والواجب، وبين الحرية والمسئولية، هو ضمان الحرية ذاتها وكابحها من التحيف والجور والجموح.. بهذا العدل أقام الله تعالى السموات، ووضع الميزان!